القصة القصيرة المغربية

يعرف دانيال غروجنوفسكي فن القصة القصيرة بقوله: "الأقصوصة جنس سردي وجيز يتميز بتقلص عدد الشخصيات والأحداث وضمور سعة المكان وامتداد الزمان، فيكون له، نتيجة ذلك، مركز اهتمام وحيد، وتأتي النهاية فيه، في الغالب، غير منتظرة" (معجم السرديات، جماعة من المؤلفين)

ويعتمد أندري جيد على صفة "القِصَر" لتمييزها عن "القصة الطويلة" أو الرواية، في أنها تُقرأ في جلسة واحدة، مقترحا أن يتراوح عدد صفحاتها بين 3 و30. بينما يحدد إدغار ألن بو هذا القِصَر في أنها تقرأ في زمن يتراوح بين نصف ساعة وساعتين.

وقد شهدت القصة القصيرة نشأتها في الأدب العربي الحديث حوالي منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، عندما كتب محمد تيمور قصة "في القطار" سنة 1917، وإن كان من النقاد من يرى أن البداية كانت قبل ذلك ببضع سنوات. لكن الثابت أن نشأتها كانت متأخرة عن نشأة الرواية (القصة الطويلة) التي ظهرت في الأدب العربي بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أما في المغرب فقد تأخر ظهور القصة القصيرة، كتأخر بقية الأشكال الإبداعية الحديثة، لتشهد بدايتها التدريجية منذ أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات، قبل أن تتطور وتنتقل إلى مرحلة النضج الفني. ويمكننا التمييز بين ثلاث مراحل أساسية لرصد نشأة هذا الفن وتطوره بالمغرب، هي: مرحلة التأسيس والمرحلة الواقعية ومرحلة النضج.

1- مرحلة التأسيس: من بداية الثلاثينيات إلى منتصف الخمسينيات

شهدت أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات ظهور المحاولات الأولى في كتابة السرد القصير الذي يحاول التحرر من الأشكال السردية القديمة كالمقامة، مع كتّاب أمثال: عبد الرحمن الفاسي وأحمد بناني وعبد الكريم بن ثابت وعلال الجامعي وعبد الله إبراهيم. وكانت هذه المحاولات متزامنة مع بداية ترجمة عدد من النصوص القصصية والمسرحية الأجنبية مع محمد القري والمهدي المنيعي ومحمد بن الشيخ وعبد المجيد بن جلون وغيرهم، ليمثل كل ذلك إرهاصا بظهور فن القصة القصيرة بالمغرب. غير أن هذا الفن لم يعرف بدايته الحقيقية إلا مع الأربعينيات التي تُعدّ مرحلة التأسيس للسرد الحديث بالمغرب بظهور فن القصة أولا، ثم ظهور فن الرواية بعد ذلك. وبذلك ظلت الفترة التي تمتد من بداية الثلاثينيات إلى منتصف الأربعينيات فترة بحث عن شكل سردي قصير يختلف عن الأشكال السائدة. وهو ما جعل الناقد أحمد اليبوري

يسمي هذه الفترة بفترة "التشكل" التي جاءت بعدها، ما بين أواخر الأربعينيات ومنتص الخمسينيات، فترة "تجنّس" الشكل القصصي:

"يمكن أن نوجز مرحلة تكوّن النص القصصى المغربي في لحظتين: لحظة التشكل، وقد ظهرت منذ الثلاثينيات، وتعني البحث عن شكل أدبي مخالف لما هو جاهز (الشعر، المقامة، المقال، الرحلة) ولحظة التجنس، وتتمثل في اختيار شكل سردي جديد ضمن مجموعة من الأشكال السردية المطروحة أمام الكاتب القصصي" (اليبوري: تطور القصة في المغرب، ص38).

ولعل نص "صراع" لعلال الجامعي خير نموذج عن السرد القصير في هذه المرحلة بما يمتاز به من بحث عن شكل سردي يختلف عن الأشكال السردية القصيرة السائدة، وعن المقامة بشكل خاص. غير أن هذا البحث جاء مطبوعا بطابع المرحلة المتمثل في عدم الاهتمام بنمو الأحداث وتطور الشخصيات ورسم ملامح الفضاء... إضافة إلى هيمنة الطابع الوعظي التربوي على المضمون القصصي.

وعلى الرغم من أن منتصف الأربعينيات قد شهد تطورا في الكتابة القصصية التي انتقلت إلى ما يسميه اليبوري بفترة "التجنّس"، بظهور نصوص قصصية أكثر نضجا مع أمثال عبد المجيد بن جلون ومحمد الخضر الريسوني، فإن المرحلة التي تمتد إلى منتصف الخمسينيات (قبل الاستقلال) تمتاز بضعف كمي في الإنتاج القصصي، إذ لم يتجاوز عدد المجموعات القصصية التي صدرت خلالها ثلاث مجموعات هي: "وادي الدماء" لعبد المجيد بن جلون و"أفراح ودموع" لمحمد الخضر الريسوني و"اللهاث الجريح" لمحمد الصباغ. واستمر هذا الضعف الكمي إلى حدود نهاية الستينيات، ليبدأ التراكم القصصي الحقيقي مع السبعينيات.

ويدل ذلك على أن نشأة القصة القصيرة بالمغرب كانت نشأة متعثرة مرت بمرحلة طويلة من التردد استمرت إلى ما بعد استقلال المغرب، قبل أن تجد لها مكانا داخل الساحة الثقافية. ولعل ذلك يعود لأسباب فنية وثقافية أبرزها: تأخر ظهور الكتابة القصصية مقارنة بالأجناس الأخرى كالشعر والرسالة والخطبة، وهيمنة البنية الثقافية التقليدية التي كانت ترفض التجديد وتميل إلى الأشكال الأدبية الموروثة كالشعر والمقامة، يضاف إلى ذلك تأخر ظهور دور النشر التي تتحمل إخراج الإنتاج القصصي في مجموعات مستقلة. وهذا ما يفسر نشر عبد المجيد بن جلون مجموعته القصصية الأولى "وادي الدماء"، التي كانت كذلك أول مجموعة قصصية في الأدب المغربي، بلبنان سنة 1947.

أما على الصعيد الفني، فإن الكتابة القصصية في مرحلة التأسيس قد تميزت بحفاظها على قواعد السرد التقليدي من اعتناء بانتظام عناصر الحبكة السردية وقلة المفارقات الزمنية وأحادية اللغة (الفصحى)، مع إثارة موضوعات تتعلق بالقيم الخلقية أو بالكفاح ضد الاستعمار، فبرزت شخصية المقاوم التي احتلت حيزا واسعا من قصص هذه المرحلة، مثلما نلمس بجلاء في قصص مجموعة وادي الدماء لعبد المجيد بن جلون.

2- المرحلة الواقعية: من منتصف الخمسينيات إلى نهاية الستينيات

تمتاز المرحلة التي تبدأ من منتصف الخمسينيات بظهور جيل جديد من الكتاب الذين طوروا من أسلوب الكتابة القصصية، فأصبحت لهذا الفن ملامحه النوعية الواضحة، مع تخليه تدريجيا عن الوظيفة الوعظية والتربوية وعن موضوع المقاومة، ليصبح أكثر ارتباطا بالواقع المغربي وبحياة الإنسان البسيط، فتراجعت فيه شخصية المقاوم لتحل محله شخصية العامل البسيط الذي يكافح من أجل لقمة الخبز. وقد صاحب ذلك تطور كمي في عدد المجموعات القصصية التي صدرت ما بين 1956 و1969 ليصل إلى خمس عشرة مجموعة (الحسن الوزاني:92). وهو ما يعني أن الستينيات كانت مرحلة التأسيس الحقيقي لفن القصة القصيرة بالمغرب سواء على مستوى التطور الكمي أو على مستوى الموضوع الاجتماعي أو التطور الفني الذي أصبح من خلاله هذا الفن أكثر تميزا واهتماما بالمقومات الفنية للقصة القصيرة.

ومن أبرز الكتاب الذين قادوا هذا التحول: عبد الكريم غلاب ومحمد زفزاف وعبد الجبار السحيمي ومحمد إبراهيم بوعلو ومحمد بيدي ومحمد الخضر الريسوني وأحمد عبد السلام البقالي ومحمد برادة...

وقد ساهمت في هذا التحول عوامل تاريخية واجتماعية وثقافية يمكن إجمالها في: استقلال المغرب وما كشف عنه من تفاقم الأزمة الاجتماعية وظهور فئات واسعة من الفقراء والمهمشين واتساع قاعدة الطبقة العاملة التي كان جزء كبير منها يعيش في الأحياء الفقيرة أو في هوامش المدن. وهو ما أدى إلى انتفاضات اجتماعية كان منها: أحداث الدار البيضاء سنة 1965 وما أسفرت عنه من إعلان حالة الاستثناء. يضاف إلى هذا، على المستوى الثقافي، تأسيس اتحاد كُتّاب المغرب" سنة 1960 وتطور بنية النشر وظهور مجلات جديدة بداية من الستينيات كمجلة القصة والمسرح (1964) وآفاق (1963) وأقلام (1964)، مع استمرار بعض المجلات التي تأسست بُعيد الاستقلال كمجلة دعوة الحق، ثم نشأة الاهتمام النقدي بالقصة القصيرة من خلال الأعمال الأكاديمية الأولى التي كانت بدايتها مع أحمد اليبوري في رسالته حول "فن القصة في المغرب" سنة 1967.

وتتمثل أبرز خصائص القصة خلال هذه المرحلة في انتقالها من فضاء البادية إلى فضاء المدينة واهتمامها بأنماط جديدة من الشخصيات التي حلت محل شخصية المناضل الوطني، هي: شخصية المهمش والعامل البسيط والمثقف، ومعالجتها القضايا الاجتماعية للطبقات الفقيرة، مع عنايتها بالجوانب الفنية كالحبكة السردية والمفارقات الزمنية واللغة التي أصبحت أكثر تعبيرا عن أبعادها الواقعية عن طريق مزج الفصحى بالعامية في كثير من الأحيان.

يقول الناقد نجيب العوفي مشيرا إلى الطابع الواقعي الذي هيمن على قصص هذه المرحلة: "لقد كانت الواقعية، كما ألمحت، لحمة واشجة بين نصوص المرحلة وبوصلة هادية لها، بهذه الدرجة أو تلك وبهذا الأسلوب أو ذاك. هذا الواقع الذي كشف عقب الاستقلال مباشرة عن تناقضات وإشكالات اجتماعية وسياسية خانقة، بعد أن وقع احتكار السلطة والمال ودارت الرحى على الجماهير الغفيرة والفقيرة التي صودرت أحلامها وآمالها، وانتقلت من وعود الاستقلال إلى واقع الاستغلال" (أسئلة النقد القصصي بالمغرب: 24)

وتمثل قصة "الخبز" لعبد الجبار السحيمي نموذجا واضحا عن قصص هذه المرحلة، بما تحتويه من بعد اجتماعي يتجلى في معالجة قضايا الفقر والاستغلال الاجتماعي والتفاوت الطبقي، وبما تمتاز به القصة نفسها من عناية بشخصية

العامل الفقير، وفضاء المدينة، وحبكة سردية قائمة على مبدأي الصراع ونمو الأحداث، وتحقيق شيء من المفارقة على مستوى التنظيم الزمني، واهتمام بسمات الشخصيات وعلاقاتها... مع كون النضج في هذه الجوانب مجتمعة لم يصل إلى مستوى ما حققته القصة القصيرة بداية من السبعينيات.

3- مرحلة النضج الفني: بداية من السبعينيات

ساهمت عوامل متعددة، سياسية واجتماعية وثقافية، في انتقال القصة المغربية إلى مرحلة النضج الفني بداية من السبعينيات، لعل أبرزها على الصعيدين السياسي والاجتماعي: تصاعد المد اليساري الاشتراكي والإيديولوجيا الماركسية، وتفاقم الأوضاع الاجتماعية وازدياد نسبة الانتفاضات الشعبية، إضافة إلى حدوث أول محاولة انقلاب عسكري على النظام الملكي سنة 1971. أما على الصعيد الثقافي فقد كانت السبعينيات مرحلة انفتاح السرد المغربي على السرد الغربي الذي كان قد قطع مراحل مع تجربة الرواية الجديدة التي حملت شعار التجديد الفني وكسر قوالب الكتابة التقليدية، حيث وصل أثرها إلى الأدب العربي مع أواخر الستينيات، لينتقل إلى السرد المغربي خلال السبعينيات.

وقد تضافرت هذه العوامل كلها مع تطور بنية النشر وظهور أسماء جديدة على الساحة الإبداعية، أمثال محمد زفزاف ومحمد شكري وأحمد بوزفور ومحمد الهرادي ومحمد أنقار... لتساهم في تحول واضح في الكتابة القصصية على المستويين الكمي والفني.

ويمكن إجمال الخصائص الموضوعية والفنية التي طبعت قصة هذه المرحلة فيما يلي:

- **الاهتمام بقضايا المهمشين:** وهو ما يعكس استمرار التيار الواقعي في القصة القصيرة مع كُتّاب أبرزهم محمد زفزاف ومحمد شكري ومحمد إبراهيم بوعلو ومحمد غرناط، سواء من خلال إثارة قضايا الفقر والتهميش، أو من خلال معالجة موضوع القيم الاجتماعية وانتقاد مظاهرها السلبية. وهو ما يجعل فضاء المدينة أيضا وزواياها الفقيرة والمهمشة يستمر في الحضور لدى عدد كبير من كُتّاب هذه المرحلة.
- **اتخاذ الموضوع الاجتماعي أبعادا سياسية:** حيث لم يعد الموضوع الاجتماعي محصورا في جانبه الاقتصادي، بل تضمنت بعض الكتابات القصصية رؤية نقدية لاذعة لتعامل السلطة، في مختلف مستوياتها، مع قضايا المهمشين. ولعل ذلك راجع إلى تطور الوعي السياسي لدى المثقفين وظهور فئة منهم متشبعة بالفكر الاشتراكي المعارض للسلطة القائمة. وقد كان محمد زفزاف من أكثر الكتّاب الذين أعطوا الموضوع الاجتماعي أبعادا سياسية، كما تمثل قصتا "الصف" لمحمد إبراهيم بوعلو و"الخادم والتفاحة" لمحمد غرناط نموذجين واضحين أيضا لهذا التوجه، بحيث نلمس تجاوز موضوعيهما قضيتي الفقر والسرقة إلى انتقاد أسلوب تعامل السلطة (السياسية والقضائية) مع الإنسان البسيط.
- **المنحى الذاتي:** إن استمرار التيار الواقعي في القصة القصيرة المغربية لا يعني توقف هذه القصة عن التطور أو بقاءها سجينة الموضوعات التي أثارتها القصة الستينية. فقد أصبح واضحا أن هذه القصة صارت أكثر

تحررا سواء في أسلوب إثارتها للموضوع الاجتماعي، كما سبقت الإشارة، أو في اتخاذ جزء منها منحى ذاتيا قائما على التأمل ونابعا من التجربة الذاتية للكاتب. ويعد أحمد بوزفور من بين كُتّاب القصة الذين يمثلون هذا التوجه الذي تأثرت فيه القصة المغربية بداية من السبعينيات بمفاهيم الحداثة والتجريب التي بدأت تصل إليها من تجارب السرد الجديد في الغرب ولدى عدد من الكُتّاب العرب، كما تأثر فيه الكُتّاب بإحباطات الواقع السياسي والاجتماعي التي دفعت عددا منهم إلى العودة للذات والإنصات لهمومها.

- **الانزياح وكسر أسلوب السرد التقليدي**: أصبح كُتّاب هذه المرحلة أكثر ميلا إلى التحرر من أساليب الكتابة السردية التقليدية. وكان ذلك بسبب انتشار نزعة التجريب في الكتابة الإبداعية في الشعر والقصة والرواية، وبتأثير من دعوات السرد الجديد القائمة على التجاوز وكسر تقاليد الكتابة السردية. وقد شملت هذه الانزياحات مستوى اللغة التي صارت تمتاز بصعود واضح للعامية في بعض النصوص وتبني نصوص أخرى لغة شعرية مثلما نجد في قصص محمد زفزاف وأحمد بوزفور. كما شملت كسر قواعد السرد بالإكثار من المفارقات الزمنية وكسر الإيقاع الزمني وتنويع الرؤى السردية في النص الواحد وتراجع أهمية الحبكة السردية...

وعلى العموم، فقد صارت القصة المغربية، منذ السبعينيات، أكثر نضجا على المستويين الموضوعي والفني. وهو ما دفع بالناقد نجيب العوفي إلى النظر إلى هذه المرحلة بوصفها "المرحلة الذهبية لانطلاقة القصة" (أسئلة النقد القصصي بالمغرب: 24). وهذا ما جعل القصة المغربية تتحرر من بعض الأساليب الموروثة عن نماذج السرد التقليدي، وتتحرر أيضا من النماذج القصصية الجاهزة الوافدة من الغرب والشرق. وهذا يعني أنها أصبحت أكثر استقلالا وامتلاكا لهويتها الخاصة.